من تاريخ نهر النيل

(١) الفرع الكانوبى

للأستاذ الدكتور محمد محمود الصياد
رئيس قسم الجغرافية ووكيل كلية البنات
بجامعة عين شمس

(١)

لم تكن دلتا النيل فى عصورها القديمة كمهدنا بها الآن ، أرضا منبسطة خصبة يجرى فى شرقها فرع دمياط وفى غربها فرع رشيد . وانما كانت كدالات الأنهار جميعا فى طفولتها ؛ أرضا كثيرة المناقع لم تتحدد فيها مجارى الماء ، ولم يتخذ النهر فيها طريقا أو طرقا ثابتة يسلكها حتى البحر ، بل كان دائم التردد بين مجرى وآخر ، اذ كانت فروعه العديدة تحمل الطمى فى مياهها فترسب منه ما ترسب فى مجاريها ، حتى اذا ما ضاق قطاع أحدها عن حمل تصرفه فاضت المياه على الجانبين بما تعلق فيها من رواسب ، ويستمر بها الحال كذلك حتى يرتدم المجرى أو يكاد بما يتجمع فيه من الطمى عاما بعد عام . ويكون نتيجة ذلك أن تتحول مياه الفيضان الى منخفض آخر مكونة مجرى جديدا .

ويذكر « هيرودوت » [1] المؤرخ الاغريقى أن الدلتا على عهده كان يشقها سبعة فروع رئيسية للنيل ، وأن خمسة منها كانت فروعا طبيعية ، أما الفرعان الآخران فصناعيان . وكان فى القسم الشرقى من الدلتا ثلاثة فروع هى بالترتيب من الشرق الى الغرب .

١ — الفرع البيلوزى وكان مصبه عند مدينة بيلوز « الفرما » التى حمل اسمها .

٢ — الفرع السائيتى Saitic وكان يصب عند أم فارج الى الشرق من بورسعيد بنحو ٣٠ كيلومترا .

(١) هيرودت : الكتاب الثانى الفقرة ١٧

٣ — الفرع المنديسى وكان يصب قريبا من قرية الديبة الحالية .

أما وسط الدلتا فلم يكن يجرى فيه الا فرع طبيعى واحد يتفرع من النيل عند رأس الدلتا ويصب عند فتحة البرج ويعرف باسم « السبنيتى » ؛ وفرع آخر صناعى يعرف باسم الفرع « البوكولى » كان يتفرع فى شمال سمنود ويسير مع فرع دمياط الحالى حتى مصبه .

وفى غرب الدلتا وجد فرعان أحدهما طبيعى وهو الفرع « الكانوبى » والآخر صناعى وهو الفرع « البولبيتى » ... أما الأول . وهو على ما يقال كان الفرع الرئيسى للنيل أو على الأقل كان أحد الفرعين اللذين يحدان الدلتا [١] ، فكانت بدايته عند بلدة « وراق العرب » الحالية ثم يسير فى اتجاه شمالى غربى حتى يصب عند ساحل أبو قير [٢] حيث نشأت مدينة هرقل Heracleum (الطابية الحمراء الآن) . وأما الآخر وهو الفرع الصناعى فكان يخرج من الأول عند قرية « زاوية البحر » الحالية ويتجه شمالا سالكا مجرى فرع رشيد الحالى حتى يصب فى البحر عند بلدة بولبتينى Bolbitine التى حمل اسمها . ويذكر « پلينى » أن هذا الفرع وأخاه البوكولى حفرا فى العصر اليونانى ليصبح بهما النيـــل ذا فروع سبعة وهو عدد له فى العقائد اليونانية القديمة صفات خاصة [٣] .

هذه هى الفروع التى ذكرها هيرودت مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد ، وهى نفسها الفروع التى ذكرها سترابون مؤرخ القرن الأول الميلادى مع فرق بسيط هو أنه أطلق على الفرع السائيتى اسم التـــانيتى وما هو الا تحريف لا يستحق الذكر ؛ كما أنه عد الفرع البوكولى فرعا طبيعيا أطلق عليه اسم الفرع انفاتيتى وجعله يبدأ من رأس الدلتا متتبعا الفرع السبنيتى ثم مجرى فرع دمياط الحالى ابتداء من سمنود حتى البحر [٤] . وربما كان السبب فى هذا أن الفرع البوكولى زادت أهميته وكثر استعماله خلال القرون الخمسة التى تفصل بين هيرودت وسترابون فلما رآه الأخير على حالته الجديدة عده فرعا طبيعيا .

---

(١) جيرار ص ٣٩٨

(٢) عاملنا ابو قير معاملة الكلمة المفردة . وقد ذكرها الزبيدى فى تاج العروس جزء ٣ تحت كلمة بقر أى أن الباء من بنية الكلمة وهذا يثبت أنهامفردة وقد عاملنا جمع الاسماء الاخرى نفس المعاملة .

(٣) بلينى : الكتاب ٥ الفصل ١١ الفقرة ٥

(٤) سترابون : الكتاب ١٧ الفصل ١ الفقرة ١٨

أما بطلميوس — وقد عاش فى لقرن الثانى بعد الميلاد — فانه وان يكن قد اتفق مع سابقيه فى أن الدلتا كان يجتازها سبعة فروع للنيل الا أنه يخالفهما فى اعتباره الفرع الكانوبى هو وحده الفرع الطبيعى . أما الفروع الأخرى فقد كان السكان يقومون بحفرها [1] .

وينفرد بطلميوس بين المؤرخين القدماء بذكر فرع شاذ يطلق عليه اسم الفرع «البوتى» ويصفه بأنه كان يسير مستعرضا ليربط بين فروع النيل القديمة فى مجاريها الدنيا ؛ ولا شك أن مثل هذا الفرع — ان كان قد وجد — فرع صناعى ولا يمكن الا أن يكون كذلك . وهذا يجعلنا نتساءل عن الغرض الذى أنشىء من أجله على هذا الوضع الشاذ . ومع أننا لا نستطيع أن نجزم باجابة واحدة على مثل هذا السؤال فانه ليس بعسير أن نفترض أن الفرع البوتى حفر ليؤدى غرضا مزدوجا ، فتنصرف اليه مياه الفروع الأخرى من النيل ، ويحول دون وصول تأثير مياه البحر الملحة الى أراضى الدلتا الشمالية . ولو صح مثل هذا الفرض لكان معناه أن المصريين القدماء فكروا فى مشروعات الصرف لتخليص الأراضى من الأملاح . وقد تجددت هـــذه الفكرة فى العصر الحديث . وكان « مصرف المحيط » فى شمال الدلتا بعثا جديدا للفرع البوتى القديم . أو من جهة أخرى ربما كان هذا الفرع قد حفر لغرض ملاحى . ولكن ليس لدينا دليل يثبت مثل هذا الغرض أو غيره .

فاذا ما تركنا بطلميوس فى القرن الثانى ووصلنا الى القرن الرابع نجد المؤرخ « أميان مرسلان » يتفق مع سترابون فى كل شىء الا فى تسميته للفرع الكانوبى اذ يطلق عليه اسم الفرع الهرقلياتى [2] ولعله أخذ هذا الاسم من مدينة هرقل (هراكليوم) التى كانت تقع على مصبه .

ثم يأتى بعد هذا مؤرخو العرب ومنهم الخوارزمى فى القرن السابع الميلادى (الثانى الهجرى) وابن عبد الحكم فى النصف الأول من القرن الثامن الميلادى (النصف الأول من القرن الثالث الهجرى) وابن سيرابيون فى النصف الثانى من القرن نفسه ثم الادريسى فى القرن الثانى عشر فنجدهم يتناولون فروع النيل

(١) بطلميوس : الكتاب ٤ الفصل ٥ الفقرتان ١٦ ، ١٧
(٢) اميان مرسلان : الكتاب ٢٢ الفصل ١٥

فى ايجاز ، ويظهر من كلامهم الاهتمام بفرعين رئيسيين . فيذكر الخوارزمى أن الفرع الشرقى يصب عند دمياط والغربى عند الاسكندرية . أما الفروع الأخرى فعددها خمسة وتصب فى مناطق بين الفرعين . ويوافقه على ذلك ابن عبد الحكم ومن كلامهما يفهم أنفروع النيل فى شرق الدلتا قد اندثرت وتحولت المياه جميعها الى فروع وسط الدلتا وغربها .

(٢)

ويجمع المؤرخون على أن الفرع الكانوبى كان الفرع الرئيسى للنيل ولا يشذ منهم سوى هيرودوت الذى يقدم عليه الفرع السبنيتى فى حين أن بطليموس يذهب الى أنه الفرع الطبيعى الوحيد وما عداه ففروع صناعية .

وكان مجرى ذلك الفرع ينفصل عن النيل عند قمة الدلتا القديمة أمام قرية « وراق العرب » ويتجه شمالا سالكا مجرى فرع رشيد الحالى حتى بلدة « زاوية البحر »[1] . ولكن هذا الرأى لا يتفق مع ما ذهب اليه محمود باشا الفلكى فى مذكراته[2] اذ يرى أن الفرع الكانوبى كان يمر بقـــرى أبو الغيط وشلقان وأبو رقبة ومنوف ثم علقام التى تقع على فرع رشيد . ولعل الذى دفع بالفلكى باشا الى هذا التصور هو وضعه بلدة ميـوفيس Memophis التى كانت على النهر مكان بلدة منوف معتمدا فى ذلك على تشابه الأسمين . ولكنه لو عرف أن سترابون وضع هذه المدينة بين هرموبوليس ونقراطيس لما ذهب هذا المذهب خصوصا وأنه هو نفسه الذى حقق أن الأولى فى مكان « أبو حمص » والأخرى فى مكان « كوم جعيف » .

ومن عند زاوية البحر التابعة لمركز كوم حمادة كان الفرع الكانوبى يترك مجرى فرع رشيد ويتجه نحو الشمال الغربى ، وكلمة زاوية البحر نفسها تشعر بتفرع النهر فى هذه المنطقة وتكوينه منحنى ظاهرا . وليس ببعيد أن تكون البلد

---

(١) عن مجرى الفرع الكانوبى راجع عمر طوسون (١٩٢٢) ص ص ٢٩–٤٢ . (١٩٢٥) ص ص ١٦١ – ١٧٠ ؛ (١٩٤٢) ص ص ٤ – ٨

(٢) الفلكى (١٨٧٢) ص ٨٠ – ٨٩

قد حملت الاسم نتيجة لهذا الوضع الطبيعى[١] . ومن عند هذه البلد كان النهر يتجه نحو نقراطيس ومكانها الآن « كوم جعيف » .

ومن دراسة خريطة ترع غربى الدلتا تبين وجود ترعة هامة تحمل اسم أبو دياب الأعلى تأخذ من فرع رشيد عند زاوية البحر وتصل الى كوم جعيف وموقع هـــذه الترعة ينطبق تمـــاما على ما ذكره سترابون[٢] بالنسبة للفرع الكانوبى عند الكلام على نقراطيس .

واذن فيمكن القول بأن الفرع الكانوبى كان يسلك المجرى الذى تسلكه الآن ترعة أبو دياب من زاوية البحر حتى كوم جعيف . وتؤيدنا فى هذا دراسة الخطوط الكنتورية[٣] لهذه المنطقة وقد درستها وزارة الأشغال عندما فكرت فى اقامة مشروع للرى والملاحة يخترق محافظة البحيرة حتى الاسكندرية فمسحت أراضى المديرية وظهر لها أن ترعة أبو دياب والأراضى المحيطة بها أكثر ارتفاعا وأعظم خصبا من الأراضى الأخرى فى المديرية . ومثل هذه الظاهرة ، ظاهرة وجود « هضاب » ضيقة مستطيلة خصبة ترتفع عن الأراضى المجاورة معروفة فى مصر فى كل الأماكن التى كانت تجرى فيها مجارى مائية قديمة وذلك نتيجة للطمى التى تحمله وترسبه بكميات كبيرة على الأراضى التى تجاورها . وبناء على هذا الأثر يمكن أن تتتبع سير النهر .

بعد كوم جعيف كان الفرع الكانوبى يستمر فى سيره حتى قرية جنباواى فاذا ما تركها نجده كما رسم فى خرائط الأطلس الملحق بكتاب « وصف مصر » يمتد فى اتجاه دمنهور ويمر ببلدة العوجا ثم قرية دسونس أم دينار وقراقص حتى يصل الى دمنهـــور (هرموپوليس پارڤا Hermopolis Parva) التى يقول عنها

---

(١) من المحقق أن القسم المتجه هذا الاتجاه من الفرع الكانوبى وجد قبل الفتح الاسلامى غير أن اسمه القديم عرب فى الزمن الذى حدث فيه هذا الفتح كما حدث مثلا فى ناحية پلوز التى معناها باللغة اليونانية الطين واسمها الحالى الطينة .

(٢) استرابون الكتاب ١٧ الفصل ٢٣

(٣) راجع الخريطة الكنتورية لمديرية البحيرة ١/ ٢٠٠٠٠ مصلحة المساحة (١٩١١) .

استرابون انها بنيت على نفس النهر [١] . ومن دمنهور كان الفرع الكانوبى يتبع قناة دمنهور القديمة الموضحة فى الأطلس الملحق بكتاب وصف مصر والتى يشغل موضعها فى الوقت الحاضر الطريق الزراعى بين دمنهوروالعطف . ويستمر فى سيره الى أن يتصل بترعة الأشرفية بجوار بلدة أفلاقة . ومن هناك يتبع النهر مجرى قناة الاسكندرية القديمة حتى بلدة الكريون وشيديا (النشو البحرى) [٢] التابعة لمركز كفر الدوار . وفى كل هذه المنطقة لا يوجد أى مجرى آخر يحتمل أن مياه الفرع الكانوبى كانت تجرى فيه سوى هذه القناة . ونجد فى الواقع أن ارتفاع السطح على جانبيها وخصوبة الأراضى حولها والتلال الخربة والأكوام القديمة على امتدادها تؤيد الحقيقة القائلة بأنها تربط بشكل لا جدال فيه نقطتين موجودتين على الفرع المذكور .

وبعد شيديا يتبع الفرع الكانوبى ــ كما يقول محمود باشا الفلكى ــ مجرى ترعة الادكاوية [٣] القديمة تاركا كوم مازن على يمينه ثم يسير متتبعا مرتفع الأرض الصغير الفاصل بين بحيرة أبو قير وبحيرة ادكو والذى يرجع فى تكوينه الى ذلك الفرع والذى أصبحت جوانبه تبعا للقانون الطبيعى أكثر ارتفاعا من الأراضى المحيطة به نتيجة للارساب . ثم يسير الفرع الكانوبى بعد ذلك بين كوم الدهب وكوم الطرفاية حتى يصل الى البحر عند الكوم الأحمر المسمى الآن بالطابية الحمراء [٤] .

---

(١) يشك بعض الكتاب ومن بينهم الاستاذ بريتشيا Preccia فى كتابه عن الاسكندرية فى اى تكون مدينة دمنهور قائمة فى موقع هرموپوليس القديمة ؛ ولكن الأمير عمر طوسون ــ (١٩٢٢) ص ٣١ وما بعدها ــ يعارض هذا الرأى بشدة ويعتمد فى معارضته على كتاب دليل أنطونان L'Intnièr aire S'antonin الذى يذكر أن المسافة بين شيرى (الكريون الحالية) وهرمو پوليس هى ٢٤ ميل رومانى اى ما يعادل ٣٥ ١/٢ كيلومتر ؛ ولما كانت المسافة بين البلدين عن طريق الفرع الكانوبى كما هو مرسوم فى الخريطة والذى كان بالتأكيد الطريق الفعلى الذى يصل بين البلدين اللذين ذكرهما الدليل هى ٣٦ ١/٢ كيلومتر . فان الرأى الذى ذهب اليه الأمير طوسون ليس ببعيد عن الصواب .

(٢) عمر طوسون (١٩٢٢) ص ٣٢ ، (١٩٤٢) ص ٦

(٣) عمر طوسون (١٩٤٢) الخريطة رقم ٤ . هذه الترعة سميت فيما بعد الترعة الكانوبية وتحتل مجراها الآن ترعة منشأة بولين .

(٤) المصدر السابق الخريطة رقم ٣

ويقول محمود باشا الفلكى ان هذه المنطقة هى مكان مدينة هراكليوم.القديمة التى كانت قائمة عند مصب النهر فيذكر « أن سبر الأغوار التى قام بها المهندس م.لاروس فى سنة ١٨٥٩ لا تترك مجالا للشك فى أن موقع مصب الفرع الكانوبى كان فى سفح تل الكوم الأحمر ، فمجرى مصب النهر يرى واضحا فى قاع مياه الخليج (خليج أبو قير) اذ يعينـــه رأسان ممتدان تحت المـــاء من الكوم الأحمر الى أن يقتربا من جزيرة أبو قير على مسافة ٦ كيلومتر من الشاطىء . ولا يزالان الى الآن يضمان بين جوانبهما مجرى المصب على عمق ٦ أو ٧ أمتار تحت سطح الماء ، وقد تكون هذان الرأسان من طمى النيل بالطبع كما تكون الرأسان اللذان نراهما الآن مكونين لرأس البر عند فرع دمياط ولرأس رشيد عند فرع رشيد »[١] ولا بد أن رأس المصب كان قديما فوق مستوى سطح البحر وبذلك يكون مع الساحل شبه ميناء لمدينة كانوب .

ولقد تحدث « بلينى » عن امتداد هذا الفرع فى البحر حتى قرب جزيرة أبو قير فذكر أنه توجد بعض الجزر على الساحل احداها فى المصب الكانوبى للنيل والأخرى تربطها قنطرة مع الاسكندرية[٢] .

ويمكن الآن أن نعرف بوضوح لماذا حمل هذا الفرع اسم « كانوب » فهو نظرا لقربه من تلك المدينة وامتداده فى البحر قد أكسبها ميزة فريدة بأن جعل لها مع ساحل رأس أبو قير ميناء ممتازا . ولو كان الفـــرع الكانوبى ينتهى عند الساحل مباشرة بدون ذلك اللسان الممتد فى البحر لكان من المحتمل أن يشتق اسمه من نوقراطيس أو هيراكليوم ، فيسمى الفرع النقراطى أو الهراقليوتى .

(٣)

ولقد كان يتفرع من الفرع الكانوبى الكبير فرعان آخران أقل منه أهمية أحدهما عند الرافقة (زاوية البحر) حيث كان النهر يبدأ فى تحويل اتجاهه الى الشمال الغربى ، وكان هذا الفرع يتجه شمالا تقريبا حتى بلدة بولبتينى (رشيد الحالية)[٣] ويتبع مجرى فرع رشيد الحالى وكان يوصف فى بعض الأحيان بأنه

(١) الفلكى (١٨٧٢) ص ٧٩
(٢) بلينى المجلد ٧ ص ٣٤
(٣) عمر طوسون (١٩٢٢) ص ٤ ، (١٩٤٢) ص ١٠

ترعة حفرها الأهالى . أما الفرع الآخر فكان ينفصل عند بلدة الكريون ويتجه الى الغرب على وجه التقريب ويصب بالقرب من مدينة الاسكندرية وكان يوصف بأنه ترعة ويطلق عليه اسم ترعة شيديا .

ويذكر هيرودت أن الفرع البولبيتى لم يكن طبيعيا وكان يسمى ترعة بولبتين وقد استمرت هذه التسمية حتى عصر استرابون ، ومن الجائز أن تصرف الترعة قد زاد مع الزمن مما أدى الى زيادة أهميتها حتى اعتبرت فيما بعد فرعا من فروع النيل ، وقد ظل هذا الفرع يحمل اسم الفرع البولبيتى حتى العهد العربى حيث بدأ مؤرخوهم يطلقون على الجزء الأعلى منه (وهو فى مجرى الفرع الكانوبى) اسم « فرع الاسكندرية » أما الجزء الأدنى فيطلق عليه اليعقوبى اسم فرع ستراوه[١] . ثم نجد الأدريسى يدخل الجزء الممتد من أبو نشابة حتى شابور فى القناة التى تمتد الى الاسكندرية ويطلق عليها اسم الفرع الشابورى[٢] .

وأخيرا نجد الفرع وقد أصبح يحمل اسم فرع رشيد ولا تستطيع أن نحدد بالضبط متى أطلقت عليه هذه التسمية ، ولكننا نستطيع أن نقول أنها حدثت ولا بد بعد قيام مدينة رشيد قياسا على ما نعرفه من أن الفروع القديمة للنيل كانت تحمل أسماء المدن القائمة عند مصباتها كنسبة الفرع البليوزى الى بيلوز والكانوبى الى كانوب بل وهذا الفرع الذى تتحدث عنه الى بولبتينى .

ولما كان من الثابت أن مدينة رشيد قد بنيت على أنقاض مدينة بولبتين القديمة فى أواخر القرن التاسع الميلادى (حوالى ٨٧٠م)[٣] فلا بد أن تسميه هذا الفرع باسم رشيد انما جاءت بعد هذا التاريخ واستمرت حتى اليوم .

أما ترعة شيديا فكانت تنفصل من الفرع الكانوبى عند بلدة الكريون ثم تنتهى عن الاسكندرية . وينسبها جان أسقف نيكيو Jean de Nikiou الى

(١) اليعقوبى (١٨٩٢) ص ٣٣٠
(٢) الادريسى (١٨٩٤) ص ١٤٩
(٣) بريتشيا ص ٥٥

كليوباترة [١] . ويصفها المسعودى بأنها بيت من الأحجار والرخام [٢] . ويذهب الأمير طوسون الى أن هـــذه الترعة مع الفرع الكانوبى كانت تكون ترعة الاسكندرية القديمة [٣] . وهذا يتفق مع ما ذهب اليه كثير من مؤرخى العرب وان يكن البعض منهم على خلاف ذلك .

أما نسبة حفر هذه الترعة الى كليوباترة فهى أمر لا يقبله العقل بل يجب أن نرجع بها الى زمن أبعد من هذا ، ان لم يكن قبل فتح الاسكندرية لمصر فهو على الأقل فى عهده ، اذ لا نحسب أن الاسكندر يختط مدينـــة الاسكندرية (٣٣٣ ق.م) لينافس بها منف ــ وقد نجح فى ذلك فعلا ــ مكان قرية راقوده الصغيرة القائمة على ساحل البحر دون أن يفكر فى مدها بماء الشرب اللازم لها ، ودون أن يعمل على سهولة اتصالها بالداخل كما هى سهلة الاتصال بالخارج !

والواقع أن التاريخ يشهد بأن ترعة الاسكندرية كانت وما زالت العامل الفعال فى حياة المدينة وعظمتها . وقد بلغت الاسكندرية أوج مجدها فى أيامها الأولى ، حتى ليقال انها لم تكن أقل فى عظمتها مما هى عليه الآن ، وذلك بسبب عناية البطالمة بها وتعهدهم لترعتها ، فلما كان عصر الرومان استمرت تلك العناية واستمرت معها عظمة المدينة ، حتى أريد بدولتهم الزوال وقامت الفتن والثورات فأهملوا الترع ومن بينها ترعة الاسكندرية فكان مصيرها الردم وكان مصير سكان الاسكندرية التناقص بعد أن أصبحوا مضطرين الى السير يوما كاملا فى سبيل الحصول على الماء العذب عند الكريون .

---

(١) عمر طوسون (١٩٤٢) ص ١٣

(٢) « وقد كان النيل انقطع عن بلاد الاسكندرية قبل سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣م). وقد كان الاسكندر بنى الاسكندرية على هذا الخليج من النيل ، وكان عليها معظم ماء النيل فكان يسقى الاسكندرية وبلاد مربوط ، وكانت بلاد مربوط فى نهاية العمارة والجنان المتصلة بأرض برقة . وقد بلط ارض خليجها فى المدينة بالأحجار والمرمر . وانقطع الماء عنها لعوارض سدت خليجها ومنعت الناس دخوله ، فصار شربهم من الآبار وصار النيل على يوم منهم » . المسعودى ص ٢٠٩ ــ ٢١٠

ومسافة اليوم التى ذكرها المسعودى هى عبارة عن المسافة من الاسكندرية الى الكريون أى طول ترعة شديا القديمة .

(٣) عمر طوسون (١٩٢٣) ص ص ١٩٤ ــ ٢٠٨ ؛ (١٩٢٥) ص ص ١٩٨ ــ ٢١٢ ؛ (١٩٤٢) ص ص ١١ ــ ٢٣

ثم فتح العرب مصر فى سنة ٢٠ هـ — ٦٤١ م واتخذوا من الفسطاط التى أنشأوها عاصمة لهم فتحول اليها سكان الاسكندرية ، لا لأنها أصبحت العاصمة فحسب بها ولما أصاب ترعتهم من اهمال . ولقد اضطر من لم ينزح من السكان الى الاستعانة بالصهاريج تملؤها مياه الأمطار شتاء ، وبما تحمله الترعة من ماء قليل يصل الى المدينة صيفا .

ويمكن أن نجمل ما سبق فى أن المجرى الذى أطلق عليه اسم ترعة الاسكندرية عند الفتح العربى كان يبدأ من زاوية البحر فيسير الى النقيدى ، فدنشال ، فدمنهور ، فافلاقة ، فكفر الحمايدة ، فالكريون ، فالاسكندرية . أى أنها كانت تشغل جزء كبيرا من الفرع الكانوبى ، ما عدا الجزء الذى كان يسير من الكريون نحو الشمال الى خليج كانوب (أبو قير) وقد حلت محل هذا الجزء ترعة الكانوبية فيما بعد وتحتله الآن ترعة منشاة بولين .

ويذهب عمر طوسون الى أن الجزء من هذه الترعة الذى يمتد من النيل الى كفر الحمايدة قد تغير موضعه خمس مرات[1] . أما الجزء الممتد بين كفر الحمايدة والكريون فلم ينقل موضعه اطلاقا ؛ وهذا المجرى هو أقدم المجارى التى ظلت مستعملة فى مصر كلها . وهو يتقابل الآن مع جانب من ترعة المحمودية فى بعض جهاتها ؛ ولكن الجزء الأكبر من هذا القسم ظل منعزلا عن المحمودية عندما أجرى حفرها على عهد محمد على ويجرى فيه الآن ترعة صغيرة تحمل اسم ترعة الناصرى.

أما القسم الممتد من الكريون الى الاسكندرية فهو يشغل موضع ترعة شيديا القديمة برمته ، تلك الترعة التى استعيض عنها بترعة المحمودية الحالية عدا موضعين :

---

(١) يمكن تلخيص النتائج التى وصل اليها عمر طوسون فى أن مخرج الترعة من النيل كان :

١ — من الرافقة (زاوية البحر) وذلك من الفتح العربى فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) الى سنة ٣٣٠ هـ (٩٤٢ م) أى ٣٠١ سنة .

٢ — من شابور وذلك لمدة ٧١ سنة من ٣٣٠ هـ — ٤٠٤ هـ (٩٤٣ م — ١٠١٣ م) .

٣ — من الظاهرية وذلك لمدة ٢٩٧ سنة من ٤٠٤ هـ — ٧١٠ هـ (١٠١٣ — ١٣١٠ م) .

٤ — من العطف وذلك لمدة ١١٢ سنة من ٧١٠ — ٨٢٦ هـ (١٣١٠ — ١٤٢٢م).

٥ — من الرحمانية وذلك لمدة ٣٩٤ سنة من ٨٢٦ — ١٢٣٢ هـ (١٤٢٢ — ١٨١٦ م) .

الأول : الكيلو الأول بعد الكريون الواقع شمال المحمودية .

الثانى : المسافة بين الكيلو ٦٩ ، ٧١ من المحمودية أى غرب مطار النزهة وهنا نجد مجرى الترعة القديم يقع جنوب المحمودية[١] .

(٤)

كان الفرع الكانوبى والترعتان الخارجتان منه تصب كلها فى البحر المتوسط مباشرة ، ولكن كانت هناك مجارى مائيـــة أخرى تصب فى بحـــيرة مريوط . ويذهب ابن سيرابيون أحد جغرافى العرب فى القرن التاسع الى أن أحد هذه المجارى كان فرعا للنيـــل يطلق عليه اسم « الفـــرع السكندرى » . وينفرد ابن سيرابيون بهذا وحده ، ويقول انه كان يأخذ من النيل عند قناطر اللاهون بالقرب من بلدة الحمام ثم يمر بقصر يوسف متجها فى حدود السهل الى سقارة ويتجه الى الشمال الغربى ليصب فى بحيرة مريوط . ويذكر ابن سيرابيون أنه كان يخرج من هذا الفرع عند بدايته فرع آخر يتجه جنوبا بعكس سير المياه الطبيعى سالكا فى طريقه مجرى بحر يوسف الحالى وكان ينفصل من هذا الفرع الأخير مجرى آخر عند اهناسية يتجه الى ديروط وينتهى عندها[٢] .

ويربط عمر طوسون[٣] هذا الفرع السكندرى بترعة « العسارة » التى ذكرها بعض الكتاب الفرنسيين[٤] فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وتبدأ من الفيوم وتسير محاذية للنيل ثم تنتهى فى بحيرة مريوط ويربط مجراها بترعة الجيزة حتى كوم أبو راضى ثم بمصرف المحيط من كوم أبو راضى حتى برقاش ثم برياح البحيرة من برقاش حتى الطيرية وأخيرا من الطيرية كانت تتجه غربا فتقطع ترعة النوبارية على بعد ٥ ك.م من دست الأشراف ومن هناك كانت تتبع مجرى ترعة الحاجر حتى تصب فى بحيرة مريوط[٥] .

(١) عمر طوسون (١٩٢٥) ص ٢١٢ ، (١٩٤٢) ص ٣٣
(٢) نبيه باشا (١٩٣٨) ص ٣
(٣) عمر طوسون (١٩٢٥) ص ص ٢١٢ — ٢١٣
(٤) راجع دانفيل D'Anville (١٧٦٦) الخريطة ، مايه Maille (١٦٩٢) الخريطة .
(٥) عمر طوسون (١٩٢٥) اللوحة ١٤

ويذكر عمر طوسون أن منسوب ترعة « العسارة » كان يحفظه ورود الماء من بحيرة موريس خلال السنة ، اذ كان من الضرورى الاحتفاظ بمستوى ثابت لها حتى يساعد على الملاحة بين مصر العليا وبحيرة مريوط ، ويعتقد أن هذه الترعة بدأت تجف فى بعض أجزاء السنة بل وربما فى الجزء الأكبر منها عندما بدأت بحيرة موريس تتوقف عن تأدية وظيفتها كخزان ، ثم ردمت الرمال هذه الترعة فى المسافة بين الخطاطبة والطيرية نظرا لاقتراب حافة الصحراء منها وكانت نتيجة هذا اختفاء الترعة وأصبحت مريوط بحيرة ملحة شبه جافة .

ومهما يكن من أمر فقد كتب عمر طوسون فى هذا الموضوع سنة ١٩٢٥ قبل أن تظهر الأبحاث القيمة التى قامت بها المس كيتون طومسون والمس جاردنر [١] فى سنة ١٩٢٩ والتى أثبتت أنه لم يكن هناك بالمرة بحيرة ذات مستوى عال فى الفيوم فى العصور التاريخية بل ان البحيرة كانت على عهد الأسرات الأولى على مستوى مترين تحت سطح البحر ، ولما كانت اللاهون على ارتفاع ٢٦م فوق سطح البحر فليس هناك أى احتمال لامكان رجوع الماء من البحيرة الى وادى النيل .

وكان هيرودت [٢] أول من أذاع قصة أن البحيرة كانت خزانا يصل اليه الماء من النيل فى ستة أشهر ثم ينصرف فى الستة شهور الأخرى لاستخدامه فى الرى ، ولكن كيتون طومسون وجاردنر فى كتابهما عن الفيوم [٣] تثبتان أن البحيرة التى تحدث عنها هيرودت [٤] لم تكن بحيرة تاريخيـــة بل كان مستواها دون مستوى سطح البحر وبداية التاريخ الفرعونى ؛ وأغلب الظن أن هيرودت كما يقول الأستاذ شبجلبرج « لم ينقل تاريخا وانما نقل قصصا تاريخية قصها عليه التراجمة كما هى حالهم اليوم مع السياح المحدثين » [٥] .

(١) كيتون طومسون وجاردنر (١٩٢٧) ، (١٩٢٩) .
(٢) هيرودت (الكتاب الثانى) ص ١٤٩ طبعة لوب Loep
(٣) كيتون طومسون وجاردنر (١٩٣٤) ص ٢١
(٤) يفهم من أقوال هيرودت أن البحيرة كانت على ارتفاع ٢٠م أى ترتفع ٦٥م عن مستواها الحالى .
(٥) شبجلبرج نقلا عن دى كوسون ص ٧٨

ويضاف الى ذلك أنه من الثابت أن بطلميوس الثانى (فيـــلادلفوس) (٢٨٥ — ٢٤٦ ق.م) ضبط فيضان النيل الى البحيرة حتى يوسع الأراضى الزراعية الجافة بها ليستقر فيها الجنود المقدونيون المستعمرون .

وأظن أن هذا يدل على أن « نهر ابن سيرابيون » أو ترعة العسارة بمعنى آخر لم تكن تتغذى من بحيرة موريس وانما من بحر يوسف وربما كانت تزداد مواردها من النيل فى شمال الفيوم كما يظهر من خريطة دانفيل . ويظر المجرى الأدنى لهذه الترعة واضحا فى الأطلس الملحق بكتاب وصف مصر ولا تزال بقاياها موجودة حتى الآن فى عدد من البرك والمناقع المستطيلة ، وقد اكتشف محمود باشا الفلكى قنطرة ترتبط بهذه الترعة الى الغرب من كوم بلال ويقول عنها : « انه من الممكن أن نربط هذه الترعة بما سماه القدماء النهر الغربى أو بما عرف عند الرومان باسم نهر ليكوس Lycus ويمكن أن نربطها فى نهايتها الملتوية بترعة دراجون Dragon التى ذكرها جان دى نيكيو » .

ويذكر استرابون ان كان هناك عدة قنوات تحمل مياه النيل الى بحيرة مريوط غير الترعة التى ذكرناها . وقد تتبع «بوتى» أحد هذه المجارى ويبدأ من الفرع الكانوبى بالقرب من نقراطيس ويمر بكوم حمادة وكوم اللبن وكيمان البرنوجى والكوم الأخضر ثم يدخل بحيرة مريوط عند كوم تروجة التى كانت فى وقت ما من المدن الكبرى والتى كانت بداية الطريق البرى الى وادى النطرون ؛ وكان طول هذه القناة ٦٠ ك.م . وكانت من أهم طرق المواصلات والتجارة بين أجزاء البلاد . ولقد كانت نقراطيس التى ترجع الى القرن السادس قبل الميلاد فى وقت ما من أهم المدن التجارية فى مصر ، ولعل تجارتها كانت تصل الى البحر بواسطة هذه القناة التى توقفت عن الجريان باختفاء الفرع الكانوبى .

بقى أن نؤكد أن ما ذهب اليه ابن سيرابيون من وجود فرع للنيل يصب فى بحيرة مريوط أمر لا صحة له وان يكن قد وجد بالفعل مجار مائية تصب فى البحيرة. ويؤيد هذا الرأى بجانب اجماع المؤرخين عليه الأبحاث التى قام بها ت.هـ. سترن T. H. Stern أحد موظفى مصلحة الرى المصرى فى سنة ١٩٣٠ بعد دراسة مستفيضة لتربة البحيرة والمنطقة المحيطة بها .

(٥)

ويذهب البعض الى أن الفرع الكانوبى لم يكن آخر فرع للنيل جهة الغرب ، بل كان هناك فرع آخر يخترق منطقة مريوط وكان هو ــ عندهم ــ السبب فى غنى اقليم مريوط فى العصور القديمة ويدللون على ذلك بعدة براهين منها :

١ ــ وجود مجرى مائى قديم فى المنطقة المجاورة لوادى النطرون [١] .

٢ ــ ما ذكره هيرودت من أن الليبيين يشربون من مياه النيل ويعيشون فى منطقة يرويها ذلك النهر [٢] .

٣ ــ حقيقة أن مستوى الأرض فى مريوط مرتفع وهذا يجعل فكرة وجود فرع للنيل يرويها مقصورة على المناطق المنخفضة فقط ؛ ولكنهم يعترضون على هذا بأنه لا يجعل من المستحيل وجود فرع للنيل فقد حدثت كثير من الزلازل فى منطقة الاسكندرية . ومن الجائز كما يقول الأستاذ شفينفورت [٣] أن تكون مستويات منطقة مريوط بل وربما المنطقة بين مريوط ووادى النطرون والفيوم قد تغيرت تماما .

ولكن هذه النقط التى يثيرونها يمكن أن نرد عليها بسهولة :

١ ــ لا توجد أى اشارة فى الكتابات القديمة عن وجود مثل هذا الفرع ، ومنذ سنة ٤٥٠ق.م أى منذ عهد هيرودت والمعروف تماما أن أقصى فرع غربى للنيل هو الفرع الكانوبى .

٢ ــ ان الأثر الوحيد لمجرى مائى قديم هو ذلك الوادى بلا ماء الواقع الى الجنوب من وادى النطرون الذى يقع تحت مستوى سطح البحر بـ ١٤ مترا ومن الصعب أن نعتبر الزلازل وخاصة فى مصر قادرة على رفع اقليم مريوط الى مستواه الحالى بعد أن كان منخفضا بحيث يروى بذلك الوادى المنخفض .

٣ ــ عبارة هيرودت التى تشير الى الليبيين كقوم يعيشون فى منطقة ترويها مياه النيل لا تعنى بالضرورة وجود فرع للنيل فى اقليم مريوط بل يمكن تفسيرها

---

(١) راجع خرائط باشو (١٨٢٤) .
(٢) راجع هيرودت الكتاب الثانى : فصل ١٧ ؛ ومحمود الفلكى ص ٩
(٣) شفينفورن Schweinfurth (١٨٨٣) ص ص ٦٥ ــ ٦٧

بأن سواحل بحيرة مريوط كانت ترويها قنوات تأخذ مياهها من الفرع الكانوبى نفسه .

٤ — ان رى هذه المنطقة الآن بواسطة ترعة تأخذ مياهها من النيل أمر ثبتت استحالته نظرا لارتفاع مستوى الأرض ، وليس هناك سبب خاص يدعو الى الاعتقاد بأن المنطقة قد تعرضت لحركات أدت الى ارتفاع السطح بل بالعكس تقوم البراهين على وجود حركة انخفاض شملت ساحل الدلتا كله .

٥ — وجود الآبار اليونانية والرومانية بكثرة يؤيد ما ذهبنا اليه من عدم وجود فرع للنيل فى العهدين الاغريقى والرومانى ، اذ لو وجد مثل هذا الفرع لما كانت هناك حاجة بالمرة الى استخدام تلك الآبار والخزانات سواء لأغراض الشرب أو أغراض الزراعة[1] .

(٦)

والخلاصة أن الفرع الوحيد الذى وجد فى غربى الدلتا هو الفرع الكانوبى ، وكان أهم فروع النيل جميعا ، ولكنه اختفى فى نحو القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) نتيجة لتزايد الطمى فيه ، ولا سيما فى جزئه القريب من المصب بعد تفرع ترعة شيديا منه . وكان لهذه الترعة دخل فى ذلك اذ أسرت جزء كبيرا من مياهه . وتحولت مياه الفيضان الى الفرع البولبتى لأنه أكثر انحدارا واستقامة فى مجراه ، وبذلك أخذ يحتل المكانة التى كانت للفرع الكانوبى ليصبح أحد الفرعين الباقيين حتى الآن من فروع النيل .

تتضاءل بالتدريج ، وتحول الى ترعة طالما حفرها وغير مأخذها من النيل حكام مصر فى العهد الاسلامى ، حتى انتهى الأمر بردم نهاية الفرع من الكريون حتى مصر فى العهد الاسلامى حتى انتهى الأمر بردم نهاية الفرع من الكريون حتى كانوب . ثم كان العصر الحديث وبدأت مصر تهتم بشئون الرى فأعيد حفر القسم الأخير من الفرع الكانوبى ليكون ترعة للرى تحمـــل حتى اليوم اسم « الترعة الكانوبية » .

---

(١) باشوت Pachot (١٨٢٤) ص ٩

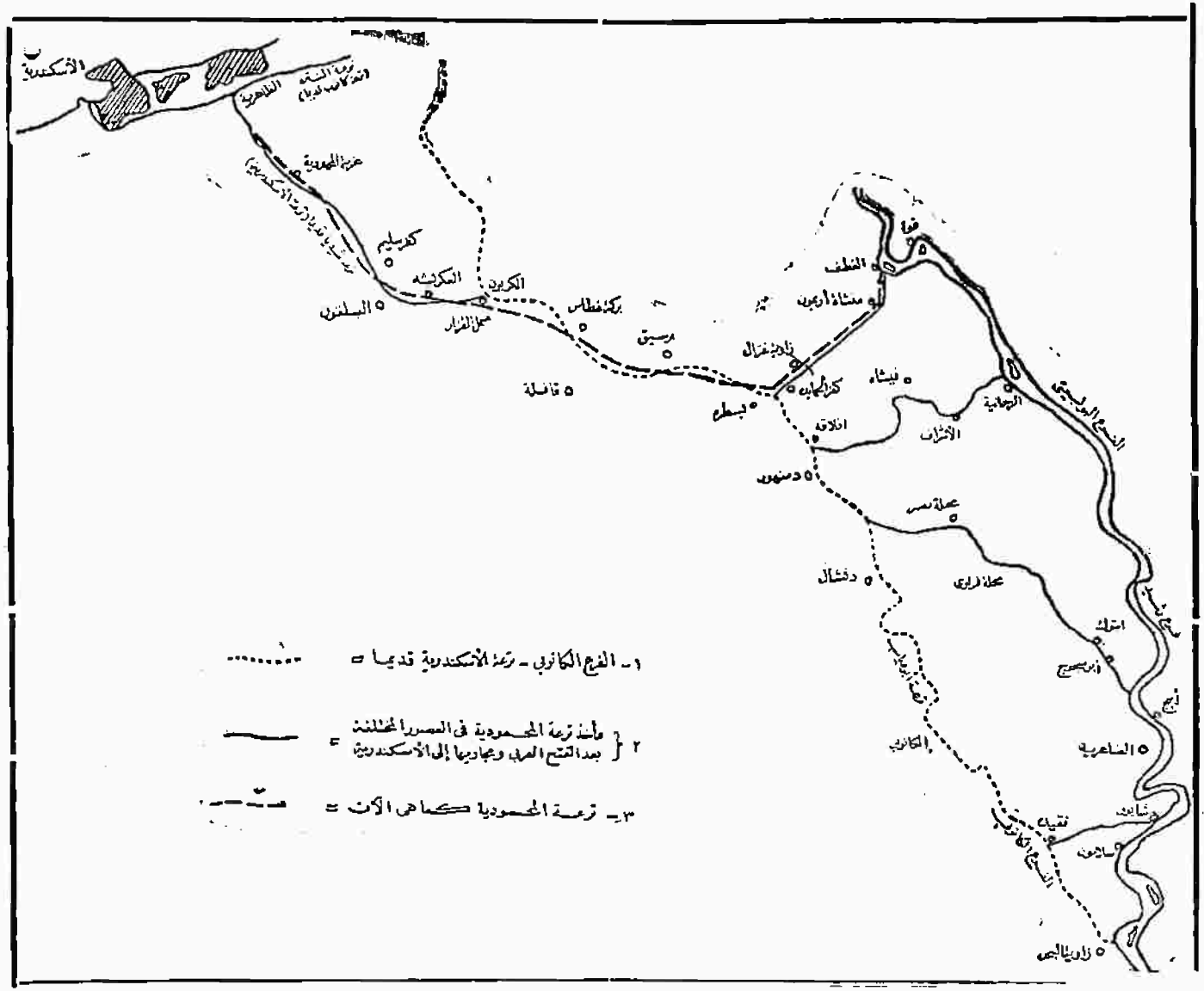
الإسكندرية
بحيرة مريوط
الطابية
عزبة المحمودية
كفر سليم
العكرشة
الكريون
السلطون
محل القرار
بركة غطاس
برسيق
قافلة
زاوية غزال
كفر الحمايد
بسطرة
قها
المطف
منشاة أريون
نيشاة
الزهاية
الأشراف
اتلاقة
دمنهور
محلة مرحوم
دشنال
محلة ابرى
اتلك
أبو حمص
الصاغرية
شابور
نقيلة
سلامون
زاوية الجمل
الفرع الكانوبي
الفرع الرشيدي
١ـ الفرع الكانوبي ـ ترعة الإسكندرية قديما =
٢ـ ماتزه ترعة المحمودية في العصور المختلفة بعد الفتح العربي ومجاريها إلى الإسكندرية =
٣ـ ترعة المحمودية كما هي الآن =

مصادر البحث

اولا ـ المصادر العربية :

١ ـ الادريسى : «صفة المغرب وارض السودان والاندلس» ماخوذة من كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » مطبعة بريل ، لندن ١٨٩٤

٢ ـ اليعقوبى :
« كتاب البلدان » طبعة دى جويه ١٨٩٢

٣ ـ طوسون ، عمر : (١٩٤٢) .
« تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية » مطبعة العدل ـ الاسكندرية ١٩٤٢

٤ ـ نبيه ، محمد كامل : (١٩٣٨)
« مذكرة عن الترعة المحمودية » مطبوعات وزارة الأشغال العمومية ـ مطبعة بولاق ١٩٣٨

ثانيا ـ المصادر الافرنجية :

1. Anville ; J. B. d' : 1766.
« Memoire sur L'Egypte Ancienne et Moderne ». Paris, 1766.

2. Breccia : 1914.
« Alexandria ad Agyptum ». Guide de la ville ancienne et moderne e du Musée Grico—Romain ». Bergamo, 1914.

3. Caton Thompson ; G. & Gardner, E. W. : 1929.
« Recent work on the Problem of Lake Moeris ».
Geog. Jour. Vol. IX X iii No. 1. Jan. 1929.

4. ———————— : 1934.
« The Desert Fayum ». London. 1939.

5. Cesson ; Anthony de : 1935.
« Mareotis ». London, 1935.

6. El-Falaki ; M. : 1872.
« Memoire sur l'antique Alexandrie, ses faubourgs et environs découverts par les fouilles sondages, nivellements et autres recherches ». Copenhague, 1872.

7. Girard : 1835.
« Memoire sur la Vallée du Nil ». D. E., hist. Nat., Texte, t. II.

8. Maiblet ; M. de : 1835.
« Description de l'Egypte ». Paris, 1835.

9. Pacot ; M. J. R. : 1824.

« Voyage dans la Marmarique et la Cyrénaique ». Paris, 1824.

10. Schweinfurth ; G. : 1883.

« Une Visite au port de Tobruk ». Bull. de l'Inst. Eg. 1883.

11. Toussoun ; Omar : 1922.

« Memoire sur les anciennes branches du Nil.
Epoque Ancienne » dans M. S. A. t. I.

12. ——————— : 1923.

« Memoire sur les anciennes branches du Nil.
Epoque Arabe ». dans M S. A. t. 1, 2.

13. ——————— : 1925.

« Memoire sur les anciennes branches du Nil ».
dans M. S. A. t. III.